

## الإرادة لِكَيْ نُؤْمِنَ المحاضرة ٣: هل نُولدُ أَحْرَارًا؟ أ.ر. سي. سبرول

رَأَيْنَا فِيمَا سَبَقَ جَانِبًا وَاحِدًا مِنَ الْحَرْبِ الدَّائِرَةِ عَلَى جَبْهَتَيْنِ، وَهُوَ الْجَانِبُ الْمُتَعَلِّقُ بِحُرِّيَّةِ الْإِرَادَةِ، وَعَلَاقَةِ حُرِّيَّةِ الْإِرَادَةِ بِالسِّيَادَةِ الْإِلَهِيَّةِ. قَطْعًا، هَذَا الْمَوْضُوعُ فِي حَدِّ ذَاتِهِ يَسْتَحِقُّ سِلْسِلَةً كَامِلَةً، لِأَنَّهُ يَتَضَمَّنُ الْكَثِيرَ جِدًّا مِنَ الْمَسَائِلِ. لَكِنْ أَوْدُ التَّرْكِيزَ فِي هَذِهِ السِّلْسِلَةِ عَلَى الْأُزْمَةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْجَبْهَةِ الْأُخْرَى مِنَ الْحَرْبِ، وَهِيَ عَقِيدَةُ الْحُطِيَّةِ الْأَصْلِيَّةِ، وَعَلَاقَتُهَا بِحُرِّيَّةِ الْإِرَادَةِ.

أَثَارَتْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ جَدَلًا كَبِيرًا فِي الْكَنِيسَةِ الْأُولَى، بِسَبَبِ تَأْثِيرِ رَجُلٍ يُدْعَى بِيلاجيوس، الَّذِي بِسَبَبِهِ يُطْلَقُ عَلَى الْجَدَلِ اسْمُ الْجَدَلِ الْبِيلاجِيّ. دَارَ الْجَدَلُ بَيْنَ بِيلاجيوس وَزَمِيلَيْهِ - كُوليستوس (Coelustus) وَجُولِيَان (Julian) - وَبَيْنَ عَمَلَاقِ الْكَنِيسَةِ فِي الْأَلْفِيَّةِ الْأُولَى، الْقُدَيْسِ أَوْغُسطينوس. انْدَلَعَ هَذَا الْجَدَلُ نَحْوَ أَوَاخِرِ الْقَرْنِ الرَّابِعِ، وَاسْتَمَرَ حَتَّى الْقَرْنِ الْخَامِسِ، وَحُسِمَ آخِرًا فِي مَجْمَعِ قَرطاج، عَامَ ٤١٨، حَيْثُ أَدَانَتْ الْكَنِيسَةُ بِيلاجيوس بِالْهَرَطَقَةِ. لَكِنْ كَمَا هُوَ الْحَالُ عَادَةً فِي تَارِيخِ الْهَرَطَقَةِ، وَفِي قَرَارَاتِ الْكَنِيسَةِ وَمَراسِيمِهَا، مُجَرَّدُ حُكْمِ الْكَنِيسَةِ عَلَى رَأْيٍ لَاهُوتِيٍّ بِأَنَّهُ هَرَطَقَةٌ، وَرَفُضَهَا لَهُ، لَا يَعْنِي تَلَاشِيَهُ وَاحْتِفَاءَهُ بِبَسَاطَةِ بِلَا رَجْعَةٍ. لَكِنْ أَتَجَرَّأُ عَلَى الْقَوْلِ إِنَّ الضَّلَالَةَ الْبِيلاجِيَّةَ وَاحِدَةٌ مِنْ أَضْعَابِ الضَّلَالَاتِ الَّتِي تُوَاجِهُ الْكَنِيسَةَ بِاسْتِمْرَارٍ، حَتَّى فِي يَوْمِنَا هَذَا.

لِنَرْجِعْ إِلَى الْوَرَاءِ لِلْحِظَةِ، وَنَنْظُرْ هَذَا السُّؤَالَ: "بِمَ كَانَ الْجَدَلُ الْبِيلاجِيّ يَتَعَلَّقُ؟" لِنَجِيبَ عَنْ هَذَا السُّؤَالَ، عَلَيْنَا أَوَّلًا أَنْ نَفْهَمَ قَدْرًا عَنْ خَلْفِيَّةِ بِيلاجيوس. بِحَسَبِ التَّفْلِيدِ، وُلِدَ بِيلاجيوس فِي أَيْرْلَنْدَا، وَهَذَا يَجْعَلُهُ وَاحِدًا مِنْ أُسْلَافِي. قَطْعًا، كَانَ بِيلاجيوس بَرِيطَانِيًّا. فَقَدْ جَاءَ مِنَ الْجُزْرِ الْبَرِيطَانِيَّةِ. وَكَانَ رَاهِبًا جَادًّا وَمُتَشَدِّدًا، سَافَرَ إِلَى رُومَا، وَعَاشَ فِيهَا. وَهَنَّاكَ أَرْعَجْتُهُ رُوحَ التَّعَجُّفِ الَّتِي وَجَدَهَا بَيْنَ رِجَالِ الدِّينِ وَالْمَسِيحِيِّينَ فِي الْمَدِينَةِ الْحَالِدَةِ. وَفِي الْوَاقِعِ، رَوَعَهُ الْفِسْقُ، وَالْفُجُورُ، وَسُلُوكُ الَّذِينَ ادَّعَوْا أَنَّهُمْ مَسِيحِيُونَ. فَهُوَ كَانَ غَيُورًا نَجَاهَ الْبِرِّ. وَفِي هَذَا الصِّدَدِ، كَانَ لَدَى بِيلاجيوس قَاسِمٌ مُشْتَرِكٌ مَعَ الْفَرِيْسِيِّينَ الْأَوَائِلِ.

عِنْدَمَا نَسْتَحْدِمُ لَفْظَ "فَرِيْسِيّ"، نَسْتَحْدِمُهُ عَادَةً بِالْمَعْنَى السَّلْبِيَّةِ. فَلِلْفَرِيْسِيِّينَ دَلَالَةٌ سَلْبِيَّةٌ، لِأَنَّ الْفَرِيْسِيِّينَ هُمُ الَّذِينَ كَانُوا دَائِمًا مُعَادِينَ لِيَسُوعَ. لَكِنْ لَمْ يَكُنِ الْجِيلُ الْأَوَّلُ مِنَ الْفَرِيْسِيِّينَ هَكَذَا. فَقَدْ كَانَ الْفَرِيْسِيُّونَ الْأَصْلِيُّونَ أَشْبَهَ بِالْيُورِيتَانِيِّينَ، أَيُّ كَانُوا أَنَاسًا أَحَبُّوا عَهْدَ اللَّهِ، وَشَرِيعَةَ اللَّهِ، وَكَانُوا قَلِقِينَ لِلْغَايَةِ حِيَالِ الْإِنْجِلَالِ الْأَخْلَاقِيّ الَّذِي اجْتَاخَ مُجْتَمَعَ إِسْرَائِيلَ. لِهَذَا، كَرَسَ وَأَفْرَزَ الْفَرِيْسِيُّونَ أَنْفُسَهُمْ لِطَلَبِ الْبِرِّ عَنْ طَرِيقِ إِطَاعَةِ شَرِيعَةِ اللَّهِ. إِذَنْ، كَانَتْ

دَوَّافِعُهُمُ الْأَصْلِيَّةُ هِيَ اسْتِرْدَادُ حَقِيقَةِ الْعَهْدِ وَالشَّرِيعَةِ إِلَى إِسْرَائِيلَ. ثُمَّ قَطَعًا، أُصِيبُوا بِالْبِرِّ الذَّائِي، وَتَحَوَّلُوا إِلَى أَعْدَاءِ لِلْمَسِيحِ، كَمَا نَرَاهُمْ عَبْرَ صَفَحَاتِ الْعَهْدِ الْجَدِيدِ.

وَإِذَا نَظَرْنَا إِلَى بِيلاجيوس، نَرَى كَيْفَ كَانَ غَيْرًا نَجْهَ التَّقْوَى وَالْبِرِّ، وَقَلِقًا وَمُنْزَعَجًا لِلْعَايَةِ حِيَالِ الْإِنْجَالِ الْأَخْلَاقِي لِلْكَنِيسَةِ فِي أَوَاخِرِ الْقُرْنِ الرَّابِعِ. وَمَا دَفَعَهُ إِلَى إِثَارَةِ الْجَدَلِ اللَّاهُوتِيِّ الَّذِي يُحْمِلُ اسْمَهُ، هُوَ رُدُّ فِعْلٍ مِنْهُ نَجْهَ صَلَاةِ شَهِيرَةٍ كَتَبَهَا أَسْقُفُّ هِيُبُو، الْقَدِيسُ أَوْغُسْطِينُوسُ. قَالَ أَوْغُسْطِينُوسُ فِي صَلَاتِهِ "يَا رَبُّ، أَعْطِ مَا تَأْمُرُ بِهِ، وَلْتَأْمُرْ بِمَا تُرِيدُ". دَعْوِي أَكْرَرَهَا: "يَا رَبُّ، أَعْطِ مَا تَأْمُرُ بِهِ، وَلْتَأْمُرْ بِمَا تُرِيدُ". مَا رُدُّ فِعْلِكَ نَجْهَ صَلَاةِ كَهْذِهِ؟ قَدْ يَتَجَاوَبُ مُعْظَمُنَا بِشَكْلِ جَيِّدٍ وَإِجَابِيٍّ مَعَ صَلَاةِ كَهْذِهِ، عَلَى عَكْسِ بِيلاجيوس. فَقَدْ صَدِمَ لَدَى قِرَاءَتِهِ لِهَذِهِ الصَّلَاةِ. كَانَ مُتَّفِقًا تَمَامًا مَعَ الْجُزْءِ الثَّانِي مِنَ الصَّلَاةِ، حَيْثُ قَالَ أَوْغُسْطِينُوسُ لِلَّهِ: "وَلْتَأْمُرْ بِمَا تُرِيدُ". قَطَعًا، لَمْ يَفْتَرِضْ أَوْغُسْطِينُوسُ أَنَّهُ يُعْطِي اللَّهُ تَصَرُّحًا بِأَنْ يُوصِي بِمَا يَشَاءُ، لَكِنَّهُ بِبَسَاطَةٍ عَبَّرَ عَنِ اسْتِعْدَادِهِ لِلخُضُوعِ لِشَرِيعَةِ اللَّهِ، مَهْمَا أَرَادَهَا اللَّهُ أَنْ تَكُونَ. كَانَ هَذَا مَا يَعْنِيهِ الْجُزْءُ الثَّانِي مِنَ الصَّلَاةِ، الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَدَى بِيلاجيوس أَدْنَى اعْتِرَاضٍ عَلَيْهِ.

لَكِنَّ الْجُزْءَ الْأَوَّلَ مِنَ الصَّلَاةِ هُوَ مَا أَرَعَجَهُ كَثِيرًا، إِذْ سَمِعَ أَوْغُسْطِينُوسُ يَقُولُ: "يَا رَبُّ، أَعْطِ مَا تَأْمُرُ بِهِ". فَقَالَ: "حَسَنًا، لِمَ قَدْ نُصِّلِي صَلَاةَ كَهْذِهِ؟ فَإِنْ أَوْصَاكَ اللَّهُ بِشَيْءٍ، فَمِنَ الْمُؤَكَّدِ أَنَّهُ لَيْسَ مُضْطَرًّا أَنْ يَمْنَحَكَ الْقُوَّةَ لِتَنْفِيزِهِ". وَبِالطَّبْعِ، كَانَ أَوْغُسْطِينُوسُ يَقُولُ: "يَا رَبُّ، هَبْنِي عَطِيَّةً. أَعْنِي". كَانَ أَوْغُسْطِينُوسُ يَتَحَدَّثُ هُنَا عَنِ النِّعْمَةِ. وَعِنْدَمَا قَالَ: "يَا رَبُّ، أَعْطِ مَا تَأْمُرُ بِهِ"، كَانَ يَقْصِدُ: "يَا رَبُّ، أَعْطِنِي النِّعْمَةَ لِأَتَمَكَّنَ مِنْ تَنْفِيزِ مَا تَأْمُرُ بِهِ". لِأَنَّ أَوْغُسْطِينُوسَ كَانَ يُؤْمِنُ - كَمَا سَتَرَى مِنْ خِلَالِ دِرَاسَتِنَا لَهُ - بِأَنَّ الْإِنْسَانَ عَاجِزٌ عَنِ إِطَاعَةِ وَصَايَا اللَّهِ، مَا لَمْ يَمْنَحْهُ اللَّهُ النِّعْمَةَ اللَّازِمَةَ لِإِطَاعَتِهَا.

هَذَا مَا اعْتَرَضَ عَلَيْهِ بِيلاجيوس. وَقَالَ: "كَلَّا، بَلْ يَفْرِضُ اللَّهُ عَلَى الْمَخْلُوقِ وَاجِبَ وَمَسْئُولِيَّةَ إِطَاعَةِ كُلِّ مَا يُوصِي بِهِ". وَأَوَّلُ بَنْدٍ فِي عِلْمِ اللَّاهُوتِ يَتَعَلَّقُ بِعَقِيدَةِ اللَّهِ، بِحَسَبِ بِيلاجيوس. وَقَالَ بِيلاجيوس: "مَا نَفْهَمُهُ بِوُضُوحٍ شَدِيدٍ عَنِ اللَّهِ هُوَ أَنَّهُ عَادِلٌ. وَلِأَنَّهُ عَادِلٌ، لَا يُمَكِّنُهُ الْبَتَّةُ أَنْ يُوصِي مَخْلُوقَاتِهِ بِفِعْلٍ مَا يَعْجِزُونَ عَنْ فِعْلِهِ". فَأَنْ يُوصِينَا اللَّهُ بِفِعْلِ مَا نَعْجِزُ عَنْ فِعْلِهِ هُوَ وَكَأَنَّهُ يَفْرِضُ عَلَيْنَا وَصِيَّةً غَيْرَ عَادِلَةٍ. وَالْأَسْوَأُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ مُعَاقَبَتَهُ لَنَا، حِينَ نَخْفِقُ فِي فِعْلِ مَا نَعْجِزُ عَنْ فِعْلِهِ مِنَ الْأَسَاسِ، سَتَكُونُ تَصَرُّفًا شَرِيرًا. فَكَأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ لَنَا: "طَيِّرُوا، بِدُونِ مُسَاعَدَةٍ، وَبِلَا آيَةٍ مُعَدَّاتٍ أَوْ أَدَوَاتٍ، مِنْ أَوْرُلَانْدُو إِلَى شِيكَاغُو". ثُمَّ يُحَاسِبُنَا عَلَى ذَلِكَ، بَيْنَمَا لَمْ يُعْطِنَا أَجْنَحَةً أَوْ رِيشًا أَوْ آيَةَ عَدَّةٍ أُخْرَى مُخَلَّقٍ بِهَا فِي الْهَوَاءِ. إِذَنْ، كَانَتْ فِكْرُهُ أَنَّ الْإِنْسَانَ تَلْزُمُهُ نِعْمَةٌ أَوْ نَوْعٌ مِنَ الْمَعُونَةِ الْإِلَهِيَّةِ لِيُؤَدِّيَ وَاجِبَهُ مُنْقَرَةً تَمَامًا لِبِيلاجيوس، لِأَنَّهُ قَالَ مُجَدِّدًا: "هَذَا يُفْسِدُ بَرَّ اللَّهِ".

قَطْعًا، رَدَّ أَوْعُسْطِينُوسُ عَلَى ذَلِكَ قَائِلًا: "مَهْلًا، لَا يُمَكِّنُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُطِيعَ شَرِيعَةَ اللَّهِ دُونَ مَعُونَةِ النِّعْمَةِ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ سَاقِطٌ. وَنَتَائِجُ السُّقُوطِ تَشْمَلُ، إِلَى حَدِّ مَا، فَقَدَانًا لِلْقُدْرَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ". وَشَرِيعَةُ اللَّهِ لَا تَتَغَيَّرُ. فَعِنْدَ الْخُلُقِ، قَالَ اللَّهُ: "كُونُوا قَدِيسِينَ كَمَا أَنِّي أَنَا قُدُوسٌ. وَكُونُوا كَامِلِينَ كَمَا أَنِّي أَنَا كَامِلٌ". وَيُذَكِّرُ مُعْظَمَنَا الْيَوْمَ أَنَّ الْقُدْرَةَ عَلَى أَنْ نَكُونَ قَدِيسِينَ بِالْكَامِلِ، وَعَلَى أَنْ نَعَكِسَ بَرَّ اللَّهِ بِالْكَامِلِ، هِيَ قُدْرَةٌ لَا نَتَمَتَّعُ بِهَا. كَانَ آدَمُ يَتَمَتَّعُ بِهَا عِنْدَ الْخُلُقِ، لَكِنَّ آدَمَ سَقَطَ. وَبِسُقُوطِ آدَمَ، سَقَطَ الْجِنْسُ الْبَشَرِيُّ بِأَكْمَلِهِ مَعَهُ. وَالسُّقُوطُ كَانَ إِلَى حَالَةٍ مِنَ الْفَسَادِ، بِمُوجِبِهَا نُؤَلَّدُ بِطَبِيعَةٍ خَاطِئَةٍ، بِحَيْثُ لَا نَعُودُ قَادِرِينَ أَخْلَاقِيًّا عَلَى إِطَاعَةِ شَرِيعَةِ اللَّهِ بِشَكْلِ كَامِلٍ. وَلِهَذَا نَحْتَاجُ إِلَى النِّعْمَةِ. إِذَنْ، سَلِّمُوا أَوْعُسْطِينُوسُ هُنَا بِحَقِيقَةِ السُّقُوطِ. وَفِي ضَوْءِ السُّقُوطِ، قَالَ أَوْعُسْطِينُوسُ إِنَّنَا بِحَاجَةٍ إِلَى النِّعْمَةِ لِطِيعِ اللَّهِ.

تَحَوَّلَ هَذَا الزَّرَاعُ إِلَى جَدَلٍ حَوْلَ السُّقُوطِ وَنَتَائِجِهِ. بِالطَّبَعِ، لَمْ يُنْكَرْ بِيلاجيوسُ أَنَّ آدَمَ أَخْطَأَ. لَكِنَّهُ قَالَ إِنَّ آدَمَ خُلِقَ صَالِحًا. وَعِنْدَ خَلْقِهِ، جُعِلَ صَالِحًا بِأَيِّ تَغْيِيرٍ فِي تَكْوِينِهِ. يَعْنِي ذَلِكَ أَنَّهُ، بِحَسَبِ بِيلاجيوسَ، خُلِقَ الْإِنْسَانُ صَالِحًا، لَكِنَّ كَانَتْ لَدَيْهِ الْحُرِّيَّةُ أَوْ الْقُدْرَةُ أَنْ يُطِيعَ أَوْ يَعْصَى، وَأَنْ يَفْعَلَ الْخَيْرَ أَوْ يَفْعَلَ الشَّرَّ. لَكِنَّ حَتَّى حِينَ اخْتَارَ أَنْ يَفْعَلَ الشَّرَّ - وَكَانَتْ هَذِهِ خَطِيئَةً حَقِيقِيَّةً - لَمْ يُغَيَّرْ هَذَا الْخِيَارُ مِنْ طَبِيعَتِهِ. وَلِهَذَا، يُؤَلَّدُ كُلُّ إِنْسَانٍ فِي هَذَا الْعَالَمِ بِالْحَالَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ نَفْسِهَا الَّتِي خُلِقَ آدَمُ عَلَيْهَا قَبْلَ السُّقُوطِ. إِذَنْ، لَمْ يُنْكَرْ بِيلاجيوسُ أَنَّ آدَمَ أَخْطَأَ، لَكِنَّهُ أَنْكَرَ أَنَّ آدَمَ بِسُقُوطِهِ أَغْرَقَ نَفْسَهُ وَدُرَيْتَهُ فِي حَالَةٍ مِنَ الْفَسَادِ الْأَخْلَاقِيِّ، أَدَّتْ إِلَى تَغْيِيرِ طَبِيعَتِهِمْ. قِيلَ قَدِيمًا إِنَّنَا لَسْنَا خُطَاةً لِأَنَّنا نَخْطِئُ، بَلْ إِنَّنا نَخْطِئُ لِأَنَّنا خُطَاةٌ - أَيِّ إِنَّنا نُؤَلَّدُ بِطَبِيعَةٍ خَاطِئَةٍ. هَذِهِ هِيَ الْفِكْرَةُ الَّتِي كَانَتْ مَثَارَ جَدَلٍ كَبِيرٍ مَعَ بِيلاجيوسَ. إِذَنْ، بِحَسَبِ بِيلاجيوسَ، لَدَى الْإِنْسَانِ دَائِمًا الْقُدْرَةُ سَوَاءً عَلَى فِعْلِ الْخَيْرِ أَوْ الشَّرِّ. فَهُوَ لَمْ يَفْقِدِ الْقُدْرَةَ الْأَخْلَاقِيَّةَ عَلَى إِطَاعَةِ اللَّهِ. تَوَثَّرَ الْخَطِيئَةُ فِيهِ، لَكِنَّ لَيْسَ فِي طَبِيعَتِهِ.

تَذَكَّرُونَ أَيُّ فِي الْمُحَاضَرَةِ السَّابِقَةِ تَحَدَّثْتُ عَنِ اسْتِطْلَاعِ الرَّأْيِ، حَيْثُ طُلِبَ مِمَّنْ يُسَمَّونَ الْإِنْجِيلِيِّينَ الْإِجَابَةَ عَنْ سُؤَالٍ: "هَلْ نُؤْمِنُ بِأَنَّ الْإِنْسَانَ صَالِحَ بِطَبِيعَتِهِ - أَيِّ صَالِحٍ فِي جَوْهَرِهِ؟" وَكَانَ رَدُّ الْعَالِيَةِ الْعُظْمَى مِمَّنْ يُسَمَّونَ الْإِنْجِيلِيِّينَ بِالْإِجَابِ. وَهَذَا هُوَ الْجَوَابُ الْبِيلاجِي. فَالْجَوَابُ هُوَ أَنَّهُ قَدْ تَكُونُ لَدَيْنَا خَطَايَا فِي الْعَنَاصِرِ الْخَارِجِيَّةِ مِنْ حَيَاتِنَا، تَوَثَّرَ فِيْنَا مِنَ الْخَارِجِ، لَكِنَّ فِي صَمِيمِ قُلُوبِنَا، وَأَعْمَاقِ نُفُوسِنَا، وَإِنْ أَرَلْنَا السَّطْحَ الْخَارِجِيَّ، نَجِدُ صَالِحًا ثَابِتًا لَا يَتَغَيَّرُ لِقَلْبِ الْإِنْسَانِ. وَقَطْعًا، كَانَ هَذَا رَأْيَ بِيلاجيوسَ.

مُجَدِّدًا، بِحَسَبِ بِيلاجيوسَ، مَعَ أَنَّ آدَمَ سَقَطَ، لَمْ يُؤَثِّرِ السُّقُوطُ إِلَّا فِي آدَمَ وَحَدَهُ. وَلَمْ يَنْتَقِلْ شَيْءٌ إِلَى نَسْلِهِ. فَلَمْ يَحْدُثْ انْتِقَالٌ أَوْ اِحْتِسَابٌ لِلذَّنْبِ، أَوْ فَسَادٌ لِلطَّبِيعَةِ، نَتِيجَةً خَطِيئَةِ آدَمَ. أَيُّ لَمْ يَحْدُثْ سُقُوطٌ. فَقَدْ أَخْفَقَ آدَمُ، لَكِنَّ لَمْ تَكُنْ لِلْأَمْرِ عَوَاقِبُ عَلَى آدَمَ أَوْ عَلَى أَيِّ شَخْصٍ آخَرَ، تَتَعَلَّقُ بِقُوَّةِ إِرَادَتِنَا وَطَبِيعَتِنَا.

ثُمَّ اسْتَظَرَدَ بِيلاجيوسَ قَائِلًا إِنَّهُ لَيْسَ ضِدَّ النِّعْمَةِ. فَقَدْ كَانَ يُدْرِكُ أَنَّ الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ يَقُولُ الْكَثِيرَ عَنِ النِّعْمَةِ، وَأَنَّ النِّعْمَةَ خَيْرٌ لَا شَرَّ. وَمَا مِنْ خَطْبٍ فِي الصَّلَاةِ طَلَبًا لِلنِّعْمَةِ. لَكِنْ بِحَسَبِ بِيلاجيوسَ، النِّعْمَةُ تَسَهَّلُ - وَهِيَ الْكَلِمَةُ الَّتِي اسْتَحْدَمَهَا - الطَّاعَةَ أَوْ الْبِرَّ. يَعْنِي ذَلِكَ أَنَّهُ بِمُسَاعَدَةِ النِّعْمَةِ، يَصِيرُ مِنَ الْأَسْهَلِ أَنْ نَعِيشَ حَيَاةَ الْكَمَالِ الْأَخْلَاقِيِّ، وَأَنْ نُطِيعَ شَرِيعَةَ اللَّهِ تَمَامًا. لَكِنَّهَا لَيْسَتْ ضَرُورِيَّةً. فَهِيَ تُسَاعِدُ، وَتُسَهِّلُ الْأُمُورَ، لَكِنَّهَا لَيْسَتْ لَازِمَةً. مُجَدِّدًا، لَمْ قَالَ ذَلِكَ؟ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَتِ النِّعْمَةُ ضَرُورِيَّةً لِيَكُونَ الْإِنْسَانُ بَارًّا، فَغَيْرُ الْبَارِّ، دُونَ مُسَاعَدَةِ النِّعْمَةِ، لَمْ يَعُدْ مَسْئُولًا، أَوْ مُذْنِبًا أَخْلَاقِيًّا، لِارْتِكَابِهِ الْخَطِيئَةَ، إِذْ لَمْ يَكُنْ بِوُسْعِهِ فَعَلَ شَيْءًا سِوَى الْخَطِيئَةِ.

يُجَسِّدُ بِيلاجيوسُ هُنَا سُؤَالَ الْجُبَلَةِ لِجَابِلِيهَا: "لِمَاذَا صَنَعْتَنِي هَكَذَا؟" وَهُوَ يَعْتَرِضُ عَلَى أَيِّ مَفْهُومٍ لِلسُّقُوطِ يَجْعَلُ النِّعْمَةَ ضَرُورِيَّةً لِيَكُونَ أَبْرَارًا. لَكِنَّهُ لَمْ يَكْتَفِ بِالْقَوْلِ بِأَنَّ النِّعْمَةَ تُسَهِّلُ الْبِرَّ لَكِنَّهَا غَيْرُ ضَرُورِيَّةٍ لِلْبِرِّ، بَلْ تَابِعَ قَائِلًا إِنَّ الْبَعْضَ، بَلْ وَالْكَثِيرِينَ، لَيْسَ فَقَطْ بِإِمْكَانِهِمْ بُلُوغَ الْكَمَالِ، بَلْ إِنَّ كَثِيرِينَ بَلَّغُوهُ بِالْفِعْلِ، دُونَ مُسَاعَدَةِ النِّعْمَةِ. فِي الْمُقَابِلِ، صَرَخَ أَوْغُسْطِينُوسُ بِرَأْيِهِ الْقَائِلِ إِنَّ الْجِنْسَ الْبَشَرِيَّ كُنْتَهُ مِنَ الْخُرَابِ. وَلَمْ يَكْتَفِ بِقَوْلِ إِنَّ لَأَحَدًا عَاشَ حَيَاةَ الْكَمَالِ، لَكِنَّهُ أَضَافَ إِنَّ لَأَحَدًا صَنَعَ عَمَلًا صَالِحًا بِالْكَامِلِ، وَإِنَّ أَفْضَلَ أَعْمَالِنَا هِيَ عَلَى أَفْصَى تَقْدِيرٍ مَا دَعَاهُ أَوْغُسْطِينُوسُ "رَدَائِلٌ مُذْهَلَةٌ". تَذَكُّرُونَ بِالتَّأَكِيدِ تَعْلِيمَ الرُّسُولِ بُولَسَ فِي رُومِيَّةِ الْأَصْحَاحِ ٣: "لَيْسَ بَارٌّ وَلَا وَاحِدٌ... لَيْسَ مَنْ يَعْمَلُ صَالِحًا لَيْسَ وَلَا وَاحِدٌ". فِي الْمُقَابِلِ، قَالَ بِيلاجيوسُ: "كثيرون أبرار، أجل كثيرون. كثيرون يعملون صالحًا، أجل كثيرون"، فِي تَعَارُضٍ مُبَاشِرٍ مَعَ التَّعْلِيمِ الْوَاضِحِ لِلْعَهْدِ الْجَدِيدِ.

فِي هَذَا الْهُجُومِ الْبِيلاجِيِّ، مَا عَلَى الْمِحْكَ لَيْسَ فَقَطْ فِكْرَةَ ضَرُورَةِ النِّعْمَةِ، بَلْ مَفْهُومُ خَلَاصِنَا بِرُمَّتِهِ، وَالْفَهْمُ الْكَامِلُ لِمَا يَحْدُثُ فِي ذَرَامَا الْخَلَاصِ. فَإِنَّ نِعْمَةَ اللَّهِ تَصِيرُ بِهِذَا مُجَرَّدَ مُلْحَقٍ خِتَائِيٍّ غَيْرِ أَسَاسِيٍّ، أَيِّ شَيْءٍ لَيْسَتْ لَهُ ضَرُورَةٌ مُطْلَقَةً لِخَلَاصِنَا. مَهَّدَ هَذَا السَّبِيلَ لِظُهُورِ التَّامُوسِيَّةِ الْجَدِيدَةِ، أَوْ التَّامُوسِيَّةِ الْبَحْتَةِ، وَبِمُوجِبِهَا يُمَكِّنُ لِأَحَدِهِمْ أَنْ يَكُونَ بَارًّا مِنْ ذَاتِهِ. وَهَذَا مَا نُسَمِّيهِ بِالْبِرِّ الذَّاتِيِّ، أَيِّ الْبِرِّ الَّذِي يَتَحَقَّقُ بِإِمْكَانِيَّاتِنَا الطَّبِيعِيَّةِ، دُونَ مُسَاعَدَةِ النِّعْمَةِ.

يُفْسِدُ ذَلِكَ مَا عَمِلَهُ الْمَسِيحُ لِأَجْلِ شَعْبِهِ، أَيِّ الْعَمَلِ الْفَائِقِ لِنِعْمَةِ اللَّهِ، إِذْ أَعْطَانَا فَادِيًا عَاشَ حَيَاةَ الْبِرِّ الْكَامِلِ عَوَضًا عَنَّا، وَعَلَى أَسَاسِ بَرِّهِ يَتَبَرَّرُ الْذِينَ يُؤْمِنُونَ فِي نَظَرِ اللَّهِ. فَبِحَسَبِ بِيلاجيوسَ، لَسْنَا نَتَبَرَّرُ عَلَى أَسَاسِ احْتِسَابِ بَرِّ الْمَسِيحِ، بَلْ نَتَبَرَّرُ عَلَى أَيِّ أَسَاسٍ؟ عَلَى أَسَاسِ بَرِّنَا، الَّذِي نُحَقِّقُهُ بِمُمَارَسَتِنَا لِحُرِّيَّةِ إِرَادَتِنَا.

وَعِنْدَمَا ابْتَدَأَ الْجَدَلُ يَحْتَدِمُ، تَمَادَى بِيلاجيوسُ إِلَى حَدِّ التَّعْلِيمِ بِأَنَّ الْوَسِيلَةَ الْأَسَاسِيَّةَ الَّتِي اتَّبَعَهَا الْمَسِيحُ لِفِدَائِنَا هِيَ أَنَّهُ قَدَّمَ لَنَا نُمُودَجًا رَائِعًا لِلْكَمَالِ الْأَخْلَاقِيِّ. رَأَيْنَا هَذَا كَثِيرًا جَدًّا فِي تَارِيخِ الْكَنِيسَةِ، حَيْثُ اسْتُبْعِدَتِ الْكُفَّارَةُ، وَحَلَّتْ مَحَلَّهَا نَظَرِيَّةٌ تَتَعَلَّقُ بِالتَّأثيرِ، مَفَادُهَا أَنَّ يَسُوعَ يُخَلِّصُنَا بِتَقْدِيمِ نُمُودَجٍ جَيِّدٍ، وَبِإِحْدَاثِ تَأثيرٍ أَخْلَاقِيِّ، وَبِتَوْجِيهِنَا إِلَى السَّبِيلِ الصَّحِيحِ لِلبُلُوغِ الْبِرِّ.

رَأَى أَوْعْطِينُوسُ أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ فَقَطْ هُجُومًا عَلَى فِكْرَةِ ثَانَوِيَّةٍ أَوْ تَافِهَةٍ فِي اللَّاهُوتِ الْمَسِيحِيَّ، لَكِنَّ الْأَمْرَ يَمَسُّ لُبَّ مَفْهُومِنَا الْكَامِلِ لِلخَلَاصِ وَالْفِدَاءِ، لِأَنَّتَا كَيْ نَخْلُصَ، لَا بُدَّ أَنْ نُدْرِكَ أَوَّلًا حَاجَتَنَا الْمَاسَّةَ إِلَى الخَلَاصِ، وَحَالَتَنَا الْمُزْرِيَّةَ، وَأَنَّتَا مَدِينُونَ عَاجِزُونَ عَن تَسْديدِ دُبُونِهِمْ. مُجَدِّدًا، رَأَى بِيلاجِيوسُ أَنَّ لَا أَحَدَ مَدِينٌ. وَحَتَّى إِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ مَدِينًا، فَمِوْسَعِهِ تَسْديدُ دِينِهِ بِنَفْسِهِ. هَذِهِ عَقِيدَةُ "الإِعْتِمَادِ عَلَى النَّفْسِ"، الَّتِي بِمُوجِبِهَا يَدْخُلُ البَشَرُ بِجَهْدِهِمْ أَوْ اسْتِحْقَاقِهِمْ مَلَكَوتَ اللَّهِ.

لِهَذَا اعْتَبَرَ أَوْعْطِينُوسُ هَذِهِ طَعْنَةً فِي قَلْبِ النِّعْمَةِ، وَفِي قَلْبِ الْمَفْهُومِ الْكِتَابِيِّ لِلخَلَاصِ. قَالَ أَدُولْفُ فُونْ هَارْتَاكُ (Adolf von Harnack)، الْمَوْرِّخُ الْكَنِيسِيُّ الْأَلْمَانِيُّ الْعَظِيمُ: "صِيغَ هَذَا الجَدَلِ بِعِبَارَاتٍ أَوْضَحَ مِنْ أَيِّ جَدَلٍ لَاهُوتِيٍّ آخَرَ فِي تَارِيخِ الْكَنِيسَةِ، بِاسْتِثْنَاءِ الجَدَلِ الْأَرْبُوسِيِّ، الَّذِي بَلَغَ ذُرُوتَهُ فِي مَجْمَعِ نِيَقِيَّةَ. فَفِي هَذَا النِّزَاعِ، كَانَ كِلَا الطَّرَفَيْنِ يَفْهَمُ بِوُضُوحٍ مَا يَقُولُهُ الطَّرَفُ الْآخَرُ، دُونَ أَيِّ عُمُوضٍ أَوْ التِّبَاسِ". وَكَانَ السُّؤَالُ هُوَ: "هَلِ النِّعْمَةُ مَطْلَبٌ أَسَاسِيٌّ لِلخَلَاصِ، أَمْ مُجَرَّدٌ وَسِيلَةٌ مُسَاعِدَةٌ؟"

الدكتور آر. سي. سبرول هُوَ مُؤَسِّسُ هَيْئَةِ خِدْمَاتِ لِيَجُونِيرِ، وَكَانَ أَحَدَ رُعَاةِ كَنِيسَةِ الْقُدَيْسِ أَنْدْرُو (St. Andrews Chapel) فِي مَدِينَةِ سَانْفُوردِ بُولَايَةِ فُلُورِيدَا، كَمَا كَانَ أَوَّلَ رَئِيسِ لِكَلِيَّةِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ لِلإِصْلَاحِ (Reformation Bible College). وَهُوَ مُؤَلِّفُ أَكْثَرِ مِنْ مِائَةِ كِتَابٍ، بِمَا فِي ذَلِكَ "كَلُّنَا لَاهُوتِيُونَ" وَ"أَدَهْسِنِي الْأَلَمُ".